



في هذا العدد

شهادة حياة

ليس من السهل في بلد مثل لبنان ان تُكتب التعزية من دون ان تتحول إلى خطاب مألوف. الموت ليس استثناء، بل جزء من الإيقاع العام لحياة تتأكل على مهل. ومع ذلك، حين يُستشهد عسكريون من الجيش أو الامن الداخلي أو الأمن العام أو امن الدولة، لا يعود الأمر تفصيلاً في مشهد مزدحم بالتطورات، بل يصبح لحظة اختبار قاسية. في ساعات عادية من يوم غير عادي، ينتشر جنود في مناطق حدودية متوترة، أو تتحرك دورية في مدينة فقدت طبقات كثيرة من انتظامها، أو يراقب ضابط مع عسكريه مسارا رماديا بين الاستقرار والفوضى. لا شيء في هذه المشاهد يبدو بطوليا بالمعنى الرومانسي للكلمة. إنها مهمات يومية ودائمة، قد تكون رتيبة ظاهريا بحيث لا ينتبه اليها احد في الاوقات العادية لأنها ليست للتظاهر الشكلي، بل كانت وستبقى الأساسات الحقيقية الصلبة، الضامنة لأمن الوطن والمواطن.

ثم يحدث ما يكسر هذا الإيقاع. لحظة واحدة كافية لتحويل الخدمة والمهمة والواجب إلى خبر عاجل، وتحويل الاسم إلى "شهيد". لكن بين اللحظة الأولى والنتيجة النهائية، هناك دائماً ما لا يُقال: جهد وتضحية مزمين، رواتب قد لا تعكس حجم المخاطر، ومؤسسات يُطلب منها الكثير وبعض الاحيان المستحيل بأدوات محدودة.

في لبنان، لا يسقط الشهداء فقط في ساحات القتال التقليدية. يمكن أن يسقطوا في مهمات امنية مختلفة وفي اماكن متعددة، أو أثناء ملاحقة افراد شبكات تهريب أو جواسيس أو مجرمين وافراد خارجين عن القانون، أو حتى في سياق ضبط أمن اجتماعي يتشظى يوما بعد يوم. الخطر هنا ليس حدثاً استثنائياً، بل هو احتمال دائم. مع ذلك، تستمر هذه المؤسسات في العمل. ليس لأنها قوية بما يكفي، بل لأنها لا تزال تمتلك شيئاً من فكرة الالتزام والواجب التي لم تبتلعها الفوضى بالكامل. ففي الداخل، لا تُقاس المسألة بخطابات الوطنية، بل بقرار يومي بسيط: أن تذهب إلى الخدمة رغم أن كل المؤشرات تقول إن الثمن قد يكون أعلى من القدرة على الاحتمال.

هنا تصبح الشهادة مرآة مزدوجة. فهي من جهة تعبير عن أقصى درجات الانتماء والتضحية، ومن جهة أخرى دليل على اختلال أعماق: أن البطولة الفردية تُعوض نقص البنية. وأن الدم، بطريقة ما، هو حصن الدولة. ومع ذلك، لا يمكن اختزال الشهداء في هذا النقد القاسي. لأن في فعلهم اليومي ما يتجاوز السياسة. هناك شيء إنساني، شخص يغادر منزله وهو يعرف أن العودة ليست مضمونة، لكنه يفعل ذلك على أي حال. ليس لأن الخطاب الوطني أقنعه، بل لأن فكرة الانضباط، أو الواجب، ما زالت تحمل وزناً داخلياً.

مع ذلك، يبقى في المشهد ما يشبه الإصرار الهادئ. هذا الإصرار ليس خطاباً، بل ممارسة يومية: عناصر يواصلون الخدمة بتفانٍ ومن دون كلل، ضباط يضبطون إيقاع الفوضى الممكنة، ومؤسسات عسكرية وامنية تحاول ان تمنع الإنهيار الكامل رغم انها تقف احياناً على ارض غير صلبة.

في النهاية، لا تختصر "شهادة الحياة" في لحظة السقوط، بل في كل يوم كان يمكن أن يسير بشكل مختلف ولم يفعل. في كل مهمة انجزت رغم النقص، وفي كل عودة لم تحدث، وفي كل مرة اختار فيها احدهم أن يقف في مواجهة خطرٍ يعرف انه اكبر من طاقته الفردية.

هؤلاء لم يكونوا استثناء عن بلدهم، بل كانوا احد اكثر وجوهه صدقا ونبلا. ان فقدانهم ليس حدثاً عابراً، بل اشارة مستمرة إلى سؤال لم يُجب عليه بعد: أي دولة يمكن ان تُبنى فوق هذا القدر من التضحية، من دون أن تُعيد توزيع معنى المسؤولية نفسها؟